﴿قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِيٓ أُرۡسِلَ إِلَيۡكُمۡ لَمَجۡنُونٞ ٢٧ قَالَ رَبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ وَمَا بَيۡنَهُمَآۚ إِن كُنتُمۡ تَعۡقِلُونَ ٢٨﴾ [الشعراء: 27 - 28]

❁ مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِما قَبْلَهُما:

الانتقالُ من الحوار إلى الاتِّهام دَيْدنُ الأفّاكين

لمّا أجابَ موسى عليه السلام سؤالَ فرعون عن ربِّ العالمين، وكان جوابُه مقنعًا لكلِّ عاقلٍ، وقع فرعون في الحرج، فانتقل إلى بابٍ آخر من أبواب الهروب، فلم يملك أكثر من الاتِّهام المباشر، فقال: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِيٓ أُرۡسِلَ إِلَيۡكُمۡ لَمَجۡنُونٞ﴾.

فلمّا أساء فرعون الأدبَ؛ "اشتد تَشَوُّفُ السامع إلى معرفة جوابه عليه السلام عنه، فاستأنف الإخبار بذلك، فحَكى أنَّه ذَكر له ما لا يُمكنه أن يدَّعي فرعونُ طاعتَه له، وهو أكثر تَغيُّرًا، وأعجبُ تنقُّلًا بأن ﴿قَالَ رَبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ﴾"[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿لَمَجۡنُونٞ﴾: أصلُ (جن) يدلُّ على السَّترِ والتَّستُّرِ[2]، الجُنون: حائلٌ بين النَّفس والعقل، والجِنَّةُ: الجُنونُ؛ وسُمّي بذلك؛ لأنَّه يَستُرُ العقلَ ويُغطّيه، وهو ذهاب العقل[3]، والمجنون اسمُ مفعولٍ مُشتَقٌّ من الفِعْلِ المبنيِّ للمجهولِ، وهو من الأفعالِ الَّتي لم ترِد إلّا مُسندةً للمجهولِ، ومعناه في الآية: الَّذي جُنَّ، أي أصابه فسادٌ في العقلِ من أثر مسِّ الجنِّ إيّاهُ[4].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

حَسْمُ المناظرةِ بما هو خارج إمكانات المستبدِّ لينقطعَ

تُبيّن الآيتان حالَ فرعون بعد بيان موسى عليه السلام للحُجج، كيف انتقل

(1) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 26.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (جن).
(3) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 141، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 89، ورضا، معجم متن اللغة: (جنن).
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 17.

من السُّؤال إلى اتِّهامه بذَهاب العقل، والجنون، وأنَّه يتكلَّم كلامًا لا يُعْقَل، فَأَلْقَمَهُ موسى ﷺ الدَّليلَ الثالث، وهو أنَّه سبحانه "هو الذي جعل المشرق مشرقًا تطلع منه الكواكب، والمغرب مغربًا تغرب فيه الكواكب ثوابتها وسيّاراتها، مع هذا النظام الذي سخَّرها فيه، وقدَّرَها، فإنْ كان هذا الذي يزعُم أنَّه ربُّكم وإلهُكم صادقًا؛ فلْيَعْكِس الأمر، وليَجْعَل المشرقَ مغربًا، والمغرب مشرقًا"[1].

وترشد الآيتان إلى الإيماء والتَّنبيه على أنَّ الذي رَمَيْتم به موسى من الجنون، أنَّه داؤكم، فرميتم أزكى الخلقِ عقلًا، وأكملهم علمًا بالجنون، والحالُ أنَّكم أنتم المجانينُ؛ إذ ذهبت عقولُكم لإنكار أظهر الموجوداتِ، خالق الأرض والسَّماوات وما بينهما، وهذا الجوابُ أنكأُ لهم جميعًا مع أنَّه ألطفُ، وأوضحُ مع أنَّه أسترُ وأشرف[2].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

علَّةُ فصلِ الآية عمّا سبقها:

فُصِلت جملة: ﴿قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ﴾ عمّا قبلها للاستئناف البياني؛ إذ يترقَّب المتلقّي من فرعون جواب سؤالٍ يثيره في ذهنهِ هجوم موسى ﷺ إذ قال: ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾، فيجيء ردُّ فرعون: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾، وهذه مغالطةٌ في الحوار، وتُهمة جديدة ليست ردًّا يقتضيه كلام موسى – ﷺ، وهروب آخرُ وقع من فرعون المهزوم.

لا صمودَ لباطلٍ أمام صولة الحقِّ، ومصيره الهروب بالمغالطة

بلاغةُ التَّوكيد في الخبر:

في تأكيد فرعونَ الخبر في قوله: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ﴾ ... ﴿لَمَجْنُونٌ﴾ دليلُ شعوره بالكذب؛ إذ لا مقتضى للتَّوكيد هنا من إنكار من حوله، أو شكِّهم في الرمي بالجنون، والتأكيد في هذا المقام يُعطي نتيجةً

عدَمُ توفُّرِ داعٍ لتوكيدِ الخبر دليلُ كذب المخبِر

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 6/ 139.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 27، والسعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 591.

عكسية، فتأكيد الخبر يزعزع الثِّقة فيه؛ إذ لا يستند إلى مقدِّمات ودواعٍ أصلًا، وإلّا فمن أين أخذ فرعونُ تلك التُّهمةَ؟ فـ "أكَّد كلامه بحرفَي التأكيد إنَّ، واللام؛ لأنَّ حالة موسى ﷺ لا تُؤذِن بجنونه، فكان وصفه بالمجنون مُعرَّضًا للشكِّ، فلذلك أكَّد فرعونُ أنَّه مجنون، يعني: أنَّه علم من حال موسى ﷺ ما عسى ألّا يعلمه السامعون"[1].

وما قال موسى ﷺ سوى ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ﴾ دون توكيد، لكنَّه قولٌ أزعجَ فرعون؛ لأنَّه يزعم أنَّه ربُّ هؤلاء، ففوجئ بقوله: ﴿وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ﴾، التي قرعت ذهنه، وحقَّقت عليه كذبه؛ إذ وضعته في مأزق الإجابة عن سؤال في أذهان مَن حوله: إذا كنتَ أنت – يا فرعونُ – ربَّنا، فمَن ربُّ آبائنا الأولين قبل وجودك؟

نكتةُ وصف فرعون موسى بالرسول:

في وصف فرعون لموسى ﷺ بالرَّسول في قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ﴾ إطلاقٌ للوصفيَّة على سبيل التهكُّم بموسى ﷺ، ويكون "سمّاه رسولًا بطريق الاستهزاء"[2].

غرضُ الإضافةِ إلى ضمير المخاطَبين:

أخـلاقُ الـكِـبْر تظهر في فلتات اللسان

وفي إضافة فرعون وصفَهُ موسى ﷺ بـ(رسول) إلى ضمير المخاطَبين في قوله: ﴿رَسُولَكُمُ﴾، إقرارٌ منه بمضمون أخبار موسى ﷺ السابقة مِن أنَّ المرسِل سبحانه وتعالى ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾.

"وأضاف الرَّسولُ إلى المخاطَبين: ﴿رَسُولَكُمُ﴾ رَبْئًا بنفسه عن أن يكون مقصودًا بالخطاب"[3]، و"ترفُّعًا مِن أن يكون مرسلًا إلى نفسِه، وفيه إثارة لِغَضَبِهم، واستدعاءٌ لإنكارهم رسالتَه بعد

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 119.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 10/ 72.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 120.

سماع الخبر؛ ترفُّعًا بأنفسهم عن أنْ يكونوا أهلًا لِأنْ يُرسل إليهم مجنون"[1]، مع ما فيه من زيادة التَّهكُّم.

دلالةُ الوصفِ بالموصوليَّة:

من أدلَّـةِ كـذِبِ فرعونَ تناقضاتُهُ التي يَسقط فيها

لم يقل فرعون: إنَّ رسولكم هذا، أو إنَّ هذا، وإنَّما وصفه بجملة صلة ﴿ٱلَّذِيٓ أُرۡسِلَ إِلَيۡكُمۡ﴾، فنصَّ فيه ذاهلًا عن صِدق موسى ﷺ وصدق رسالته، كما أنَّ في الموصول وصلتِه إشادةً بموسى الرسول، وهذا يتناقض مع الخبر الآتي: ﴿لَمَجۡنُونٌ﴾، وما ذلك إلّا تخبُّط بعد تهرُّب حيث توجَّه إليهم مبعِدًا عن المواجهة: ﴿أَلَا تَسۡتَمِعُونَ﴾.

كذلك جاءت جملة الصلة "كالتأكيد، وتنصيصًا على المقصود لزيادة تهييج السامعين؛ كيلا يتأثَّروا، أو يتأثَّرَ بعضهم بِصِدْق موسى ﷺ لأنَّ فرعونَ يتهيَّأ لإعداد العُدَّة لِمقاومة موسى ﷺ لِعلمه بأنَّ له قومًا في مصر ربَّما يَستنصر بهم"[2].

فائدةُ بناء الفعل للمفعول:

الـكـاذبُ يحاول طـيَّ الحقيقة وشَـغْـلَ النـاس بغيرها

في بناء الفعل ﴿أُرۡسِلَ﴾ للمفعول شَغْلٌ بالمرسَل لا المرسِل، وإلى ذلك فيه محاولةٌ لإنكار المرسِل سبحانه وتعالى؛ لأنَّه فرعونُ يزعم أنَّه الرَّبُّ فيقول تارةً: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ ٢٤﴾ [النازعات: 24]، وتارة يذهب إلى دعوى الألوهيَّة، فيقول: ﴿مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي﴾ [القصص: 38]؛ فكان طيُّهُ فاعلَ ﴿أُرۡسِلَ﴾ متَّسِقًا مع تلك الادِّعاءات الكاذبة بأنَّه الرَّبُّ والإله.

نكتةُ توجيه الخطابِ للملَأِ:

التَّمويهُ بقصد إثـــارةِ المـلأ أداةُ المجرمين التَّحريضيَّة

في تقييد فرعونَ إرسالَ موسى ﷺ بالجار والمجرور ﴿إِلَيۡكُمۡ﴾ خَلْعٌ لِما هو له إلى ملَئِه، فموسى ﷺ ما أُرسِل إليهم ابتداء، وإنَّما أُرسِلَ إليه هو أصالةً عن قومه جميعًا، لكنَّه تحوَّل بذلك إليهم، وقال: ﴿إِنَّ

(1) الآلوسي، روح المعاني: 10/ 72.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 120.

﴿رَسُولَكُمُ ٱلَّذِيٓ أُرۡسِلَ إِلَيۡكُمۡ﴾؛ تمويهًا وتضليلًا، ولإثارتهم عليه، وتحريكهم ضدَّه.

معنى (اللام) ودلالتها:

شعورُ المفتري الكاذب يدفعُهُ لتوكيد افترائه

اللام في الخبر ﴿لَمَجۡنُونٌ﴾ لامُ التوكيد، وقد تآزرت معاضدةً خطابه لأشراف قومه مع ﴿إِنَّ﴾ في أوَّل الجملة، واسميَّة الجملة؛ لتوكيد ما أخبر به فرعون، لعلمه بكذبهِ وافترائه على موسى عليه السلام، وأنَّه في حيِّز الإحراج، فكان توكيدُ المعاني أدعى للإقناعِ فيما يرى.

علَّةُ اختيارِ صفة الجنونِ:

يعدُّ الظّالمون من يُخالفهم في الرأي مجنونًا

لسائلٍ أن يسألَ عن سرِّ اختيار فرعون صفةَ الجنون بحقِّ موسى عليه السلام في قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِيٓ أُرۡسِلَ إِلَيۡكُمۡ لَمَجۡنُونٌ﴾؟ دون صفة الكذب أو الافتراء؛ ذلك أنَّه "كان عندهم أنَّ من لا يعتقد ما يعتقدون ليس بعاقلٍ"[1]، فالمجنون عندهم هو الذي يعترض على السّائد الموجود - ولو كان باطلًا - فيُخالفه، وهذا ديدن الظالمين في كلِّ عصر، وعليه أتباع الظّالمين، وغايته بذلك الوصف شَغْلُ موسى عن قضيته، وإدخاله في دوّامة الدفاع عن نفسه، "وهذا شأن المبطلين المتحكِّمين، عندما يُسقَط في أيديهم يلجَؤون إلى نعتِ صاحب الحق بالجنون أو غيره؛ لأنَّهم لا يملكون الدليل على معارضته"[2].

كما أنَّه "رماه بالجنون ليكون أبلغَ في صَدِّ الناس وصَرْفهم عن اتِّباعه، فكأنَّه يقول لهم: كيف يَليق بكم - وأنتم العقلاءُ - أن تُصَدِّقوا مَعْتوهًا وتتَّبعوا مجنونًا؟ إنَّ فرعون يريد من وراء هذا إثارةَ غضبهم على موسى عليه السلام واحتقارهم له"[3].

(1) الخازن، لباب التأويل في معاني التنزيل: 3/ 324.
(2) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 7/ 65.
(3) مجمع البحوث، التفسير الوسيط: 7/ 1565.

دلالةُ صيغةِ (مَفْعول) في الجُنون:

المجنونُ هو من تمكَّنت منه الجِنَّة فأوغلت فيه

التَّعبير بصيغة (مفعول) في الصفة التي أطلقها فرعون: ﴿لَمَجۡنُونٌ﴾ تسهم في شَغْل خصمه ﷺ عن تنفيذ مهمَّته؛ لأنَّها صيغةٌ تُفصح عن تسلُّط الجِنَّة عليه، وهم أحياءُ عقلاء موجودون لا يُرَوْن، فاعلون بالإرادة، بكونهم استَجَنّوا عن الأبصار، وأنَّه المفعول به الجنون؛ لأنَّ هذه الوصمةَ هي استتار العقل أو غيابه، وأنَّ تلك اللَّوثة هي التي أثرت في عقله حتى جاء ينازعنا سلطاننا، ويزعم أنَّه رسولٌ مرسل، وذلك لم يشغل موسى ﷺ، ولم يصرفه عن طريقه الواضح - طريق الدَّعوة إلى الله تعالى ربِّهم وربِّ آبائهم الأولين.

علَّةُ فصل الجملة عمّا سبقها:

ثقةُ المطمئنِّ وطُمأنينة الواثق تقودان إلى الثَّبات

قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ وَمَا بَيۡنَهُمَآۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾ من المواضع الأكثر جذبًا لذهن المتلقّي؛ ليَتَرَقَّب ردَّ موسى ﷺ على تُهمة فرعون إياه بالجنون، فإذا بموسى ﷺ لا يكترث بها، ولا يُعقِّب عليها، بل يَمضي واثقًا في طريقه، ضاربًا بها عرض الحائط، فيقول: ﴿رَبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ﴾.

سرُّ تكرارِ لفظ الربوبيَّة:

حقُّ الخالق سبحانه إذاعةُ توحيدِهِ وصَفْع المنكرين

في ذكر ربوبيَّته تعالى المشرق والمغرب تعميمٌ لسُلطانه، "أي: ليس ملكُهُ كَمُلكِك؛ لأنَّك إنَّما تملك بلدًا واحدًا لا يجوزُ أمرُك في غيره، ويموت مَن لا تُحبُّ أنْ يموت، والذي أرسلني يَملك المَشرق والمغرب"[1].

مناسبةُ ذِكر ﴿ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ﴾ بعد ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾:

الاستدلالُ بالشُّمولِ الحسيِّ أقوى دلالةً من المعقولِ الذِّهني

في إضافة اسم الربِّ سبحانه وتعالى إلى ﴿ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ﴾ بعد إضافته إلى ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ دلالةٌ على بَسط عظمته وقدرته وعطاءاته على كلِّ الجهات رأسيًّا وأفقيًّا، وهذه "صفات تُظهر نَقص

(1) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 13/ 98.

فرعون، وتُبيِّن له وللسامعين أنَّه في غاية البُعْد عن القدرة عليها، وهي ربوبيَّة ﴿ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ﴾، ولم يكن لفرعونَ إلّا ملكُ مصرَ من البحر إلى أسوان وأرض الإسكندرية"[1]، فيَبلغ الغضبُ بِفرعون مَبلغه، ويفقِده صوابه؛ حتّى يذهب إلى البديل العاجز، وهو توعُّد الخصم، وترهيبه بالانتقام، عند تحدّيه بهذا الشُّمول الحسيِّ الذي لا يخفى على عاقلٍ أو مجنون.

توجيهُ تخصيصِ ﴿ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ﴾ بالذِّكر:

الاستدلالُ بأبرز المظاهر الكونيَّة طريقٌ مختصر لإفحام الخصم

خصَّ ﴿ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ﴾ بالذِّكر من بين المخلوقات الأرضيَّة؛ "لأنَّ طلوعَ الشَّمس من أحد الخافقين وغروبها في الآخر على تقديرٍ مستقيم في فصول السَّنة وحسابٍ مستوٍ - من أظهر ما استدلَّ به"[2]، وبِذكر ﴿ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ﴾ "انتقل موسى إلى ما لا قِبَلَ لهم بِجَحْدِهِ ولا التباسه، وهو التصرُّف العجيب المشاهَدُ كلَّ يوم مرتين"[3]، "فإن كان هذا الذي يزعم أنَّه ربُّكم وإلهكم صادقًا؛ فليعكِس الأمر، وليجعل المشرق مغربًا والمغرب مشرقًا"[4]، ففرعون "لا يجرؤ، ولا يملك ادِّعاء تصريفهما، أو التحكُّم فيهما على تلك الصورة البديعة المطَّردة، والتي لا اختلال فيها ولا اضطراب"[5].

نكتةُ تقديم ﴿ٱلْمَشْرِقِ﴾ على ﴿وَٱلْمَغْرِبِ﴾:

بدأ بالأصلِ وهو الشُّروق لِحاظًا للسُّنَّة الكونيَّة

في تقديم ﴿ٱلْمَشْرِقِ﴾ على ﴿وَٱلْمَغْرِبِ﴾ تنويهٌ بسبب انبعاث الحياة، وتنفُّس الصبح بحركات الإحياء في الكون، فـ ﴿ٱلْمَشْرِقِ﴾ متعلَّقُ الإبكار ومتطلع الآمال، ومبعث الحياة، ومبسم السرور، فناسب ذلك تقديمه على ﴿وَٱلْمَغْرِبِ﴾، كما أنَّ تقديم المشرق باعتباره الأصل، فطلوعُ الشمس قبل غروبها، وفيه ردٌّ ضمنيٌّ على

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 229.
(2) الزمخشري، الكشاف: 3/ 308.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 120.
(4) مجمع البحوث، التفسير الوسيط: 7/ 1565.
(5) طنطاوي، التفسير الوسيط: 10/ 242.

فرعون أن يأتي بالشمس من المغرب، فإذا كان ربًّا؛ فليُغيِّرْ هذا القانون وتلك السنَّة الكونيَّة التي أوجدها الخالق الحقيق بالعبادة سبحانه وتعالى.

براعةُ فنِّ الطباق:

في الطباق وجهُ إحاطةٍ بالأشياء

في قوله تعالى: ﴿ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ﴾ طباقٌ؛ إذ فيه الجمعُ بين متضادّين مع مراعاة التَّقابل، ولم يكتفِ بأحدهما "ليتأمَّلوا في أنفسهم؛ لأنَّ أقرب المنظور فيه مِن العاقل نفسه ومَن وُلِد منه، وما شاهد وعاين من الدلائل على الصانع، والناقل من هيئة إلى هيئة، ومن حال إلى حال من وقت ميلاده إلى وقت وفاته.

وطابق بين ﴿ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ﴾؛ لأنَّ طلوع الشمس من أحد الخافقين وغروبها في الآخر - على تقديرٍ مستقيم ونظام ثابت لا خلل فيه في فصول السنة وحسابٍ مستقيم أيضًا مِنْ أظهرِ ما يمكن الاستدلال به"[1].

معنى العطفِ في الآية وفائدته:

تقريرُ الرُّبوبيَّةِ بالإحاطةِ لا بالجزء

كما جمع موسى عليه السلام إلى ربوبيَّة الله تعالى ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ ربوبيته ﴿وَمَا بَيۡنَهُمَآۚ﴾ بالعطف عليهما؛ لتقرير عموم ربوبيته ﷻ على كلِّ شيء يحيط به خيال الإنسان، بل إنَّ ربوبيته عزَّ وعلا تشمل كلَّ ما يخرج عن خيال الإنسان من مخلوقات لا يعلمها إلّا الله تعالى، وإنَّما كلَّم فرعونَ وملأَهُ بما يفهمون، ويرون ممّا يحيط به خيالهم، ويدركه تصوُّرهم.

دلالةُ استعمالِ أداة ﴿إن﴾:

همزُ النُّفوسِ بقصد تحريك العقول غايةٌ جليلة ومقصد نبيل

استعملَ النَّظمُ الكريم أداةَ ﴿إن﴾ دون (إذا) في قوله تعالى: ﴿إِن كُنتُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾؛ وذلك أنَّ حصولَ العقلِ السَّديد لهم مستبعَدٌ غيرُ مطموعٍ فيه، وقد ثبتوا على ضلالهم، ولم يؤثِّر فيهم ما ألقاه إليهم مِن إشارات تحملُها تلك العبارات الواضحات.

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 7/ 67.

ثم إنَّ الشَّكَّ في حصول العقل لهم في قوله ﷺ: ﴿إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾، من شأنه أن يثير فيهم التفكُّر فيما قال، وكأنَّه يقول لهم: إن كنتُ أنا مجنونًا - كما يدَّعي زعيمكم - فأين عقولُكم أنتم؟ إنَّها مهملةٌ، وغيرُ وارد حضورُها وانتفاعُكم بها؛ فكيف تتَّهمونني أنا بالجنون، وهذه حالكم؟ وفي ذلك "زيادةٌ في إغاظته والتَّدليل على إسفافه"[1].

نكتةُ تَكرارِ فعل الكَون:

قلَّما يهتدي مَن تَجذَّرت الضلالة في نفسه زمانًا طويلًا

يُلْمِح النَّظمُ الكريم إلى استبعاد حصول العقل لَهم بِتكرار الفعل ﴿كُنتُمْ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾، كما قال: ﴿إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾، وكأنَّ فوات حصول العقلِ لهم في الماضي بدلالة ﴿كُنتُم﴾ يُرْهِص بِعدم حصوله لهم في المستقبل بدلالة ﴿إِن﴾، ففي "الكلام تلميحٌ إلى أنَّهم لا عقل لهم، فكأنَّ موسى قال لهم: أنتم أولى بما وصفتموني به من جنون، وما رميتموني به من عَتَهٍ"[2].

لطيفةُ حذفِ المفعول:

توفيرُ عنايةِ المخاطَبين على تدبُّر فعل التعقُّلِ

أطلق فعل ﴿تَعْقِلُونَ﴾ عن التقييد بمفعول مخصوص، فلم يقل: (إن كنتم تعقلون الحقَّ من شواهده)؛ زيادةً في إلهابهم بُغيةَ رجوعهم إلى عقولهم للتفكُّر فيما يقول؛ لعلهم يؤمنون بالله تعالى، فغايةُ إطلاق الفعل توفيرُ عناية المخاطَبين على تدبُّر الفعل بقطع النظر عن مفعوله.

بلاغةُ التعريضِ بجُنون قوم فرعون:

الأليقُ بالجنونِ من فقد النَّظر الصحيح وضاع عن دليله

ومن البراعة الجليَّة في كلام موسى ﷺ هنا التحوُّلُ إلى استعمال مفردة ﴿تَعْقِلُونَ﴾؛ ذلك أنَّهم اتَّهموه بالجنون؛ فاقتضى ذلك منه التعريضُ بكلام يفهم به السامعُ مرادَ المتكلِّم من غير تصريح؛ وذلك بالإلماح لهم بضحالة عقولهم، وأنَّ الذي حقُّه أنْ يوصَف

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 7/ 65.
(2) مجمع البحوث، التفسير الوسيط: 7/ 1566.

بالجنون وغياب العقل هم لا هو، وكأنَّه بذلك يستفزُّهم للرجوع إلى عقولهم، وتدبُّرِ دعوته، ويوحي إليهم بأن ذلك - إنْ حدث - كفيلٌ بإيصالهم إلى الحقيقة، ومساعدتهم على سلوك السَّبيل الصحيح، وفيه تعريضٌ بأنَّ الأليق بالجنون فرعونُ لا موسى عليه السلام.

براعةُ نفي العقل بعد نفي الإيقان:

يقول الزمخشريُّ: "إنْ قلتَ: كيفَ قال أوَّلًا: ﴿إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾، وأخيرًا ﴿إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾؟ قلت: لايَن أوَّلًا، فلمّا رأى منهم شِدَّةَ الشكيمة في العِناد وقِلَّةِ الإصغاء إلى عَرْض الحُجَج؛ خاشَن، وعارَض"[1].

تحسُنُ اللّيونةُ في موضعها والخشونة في مقامها

ثم إنَّه عليه السلام "قال أوَّلًا: ﴿إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾؛ لأنَّ المقام مقام تدليل وإقناع، ثم لمّا يئسَ، واشتدَّ اللَّجاج؛ غالظهم، وقابل لَجاجتهم ونسبتهم إيّاه إلى الجنون بمثلها، فنفى عنهم العقلَ الَّذي يمكِّنهم من التمييز بين الأمور"[2]، فاليقين هو المناسِب للثُّبوت والرسوخ والدوام، أمّا المناسبُ للمعنى هنا؛ فهو الفعل ﴿تَعْقِلُونَ﴾؛ لأنَّ عمل العقل متجدِّد، ولا يليق أن يتجمَّد عند فكر، ولا أن يتوقَّف عند حدٍّ، وهذه طبيعةُ عمل العقل؛ ولذلك لم يعبِّر عنه القرآن الكريم قطُّ بالاسم (عاقلون)، وإنَّما يعبِّر عنه بالفعل ﴿تَعْقِلُونَ﴾ و﴿يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾﴾ [الأعراف: 176] و﴿يَتَدَبَّرُونَ﴾ [النساء: 82] ونحوها.

بلاغةُ التَّذييلِ في ختام الآية:

من المنطق في المناظرة إلزامُ الخَصمِ بما يطالِبُ به خصمَهُ

التَّذييلُ بجملة ﴿إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾، هو إتيانٌ بعد تمام الكلام بكلام مستقلٍّ في معنى الأوَّل؛ تحقيقًا لدلالة منطوقِه أو مفهومِه؛ ليكونَ معه كالدَّليل ليظهر المعنى عند من لا يفهم، ويكمُلَ عند مَن فهمَهُ، وفي هذا الأسلوب البلاغيِّ "تنبيهٌ لنظرهِم العقلي؛ ليعاودوا النَّظرَ، فيدركوا وجْهَ الاستدلالِ، أي: إن كنتم تُعمِلون عقولَكم، ومن اللَّطائف جَعْلُ ذلك مقابلَ

(1) الزمخشري، الكشاف: 3/ 308.
(2) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 7/ 66.

قول فرعون: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ﴾ ... ﴿لَمَجْنُونٌ﴾؛ لأنَّ الجنون يقابله العقل، فكان موسى يقول لهم قولًا ليّنًا ابتداءً، فلمّا رأى منهم المكابرةَ، ووصفوه بالجنون؛ خاشَنَهُم في القول، وعارض قول فرعون: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِيٓ أُرۡسِلَ إِلَيۡكُمۡ لَمَجۡنُونٞ﴾، فقال: ﴿إِن كُنتُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾، أي: إن كنتم أنتم العقلاء، أي: فلا تكونوا أنتم المجانين، وهذا كقول أبي تمام للَّذَيْنِ قالا له: "لِمَ تقول ما لا يُفهَم؟" فقال: "لِمَ لا تَفهمان ما يُقال؟"[1].

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

العقل والعلم:

العقل الامتناعُ عن القبيحِ، والعلم إدراكُ الحقيقةِ

"العقل هو العلم الأوَّلُ الذي يزجر عن القبائح، وكل مَن كان زاجره أقوى؛ كان أعقل، وقال بعضهم: العقلُ يمنع صاحبه عن الوقوع في القبيح، وهو من قولك: عقلَ البعيرُ؛ إذا شدَّهُ، فمنعه من أن يثورَ، وقيل: العاقلُ يفيد معنى الحصر والحبس، وخلاف العقل الحُمق وخلاف العلم الجهل، وقيل لعاقلة الرجل: عاقلة؛ لأنَّهم يحبسون عليه حياته، والعِقال ما يحبس الناقة عن الانبعاث"[2].

و"العِلْمُ: إدراكُ الشيء بحقيقته، إدراكُ ذات الشيء، والحكم على الشيء بوجود شيءٍ هو موجود له، أو نفي شيء هو منفيٌّ عنه، والعلم من وجهٍ ضربان: نظريٌّ وعمليٌّ، فالنَّظريُّ: ما إذا علم؛ فقد كمل، نحو: العلم بموجودات العالَم، والعمليُّ: ما لا يتمُّ إلّا بأن يعمل كالعلم بالعبادات، ومن وجه آخر ضربان: عقليٌّ وسمعيٌّ، وأَعْلَمْتُهُ، وعَلَّمْتُهُ في الأصل واحد، إلّا أنَّ الإعلام اختصَّ بما كان بإخبار سريع، والتَّعْليمُ اختصَّ بما يكون بتكرير وتكثير حتى يحصل منه أثرٌ في نفس المُتَعَلِّم"[3].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 121.
(2) العسكري، معجم الفروق اللغوية، ص: 366.
(3) الراغب، المفردات: (علم).

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثامن والثلاثون،
سورة الفُرقَان من الآية 43 إلى سورة الشُّعَراء الآية 95
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الثامن والثلاثون، سورة الفُرقَان من الآية 43 إلى سورة الشُّعَراء الآية 95
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 38 ، 808 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-80-8
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 38 : المجلد الثامن والثلاثون، سورة الفُرقَان من الآية 43 إلى سورة الشُّعَراء الآية 95.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-80-8
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-5248773 بتاريخ 2024/11/26م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»